الباب الأول
الصلات العربية - الألمانية

- عربيٌ يهرب إلى ألمانيا.
- روابط الصداقة بين شارلمان والعرب .
- الصداقة المؤجلة بين والي قرطبة والإمبراطور أوتو الأول.

عربيٌّ يهرب إلى ألمانيا

«لقد جئت إلى ألمانيا وأحسست بأن في وسع المرء العيش في حرية أكبر، ذلك أن الألمان لا يتدخلون في شؤون الآخرين، وكل إنسان يعيش وفقاً لإرادته وينعم غالبية السكان بحرية العقيدة».

لأول مرة في تاريخ الغرب المسيحي يستخدم تعبير «حرية العقيدة» ولم تكن صدفة أن يأتي ذلك التعبير على لسان رجل عربي ينتمي إلى شعب يتميز - خلافاً لكلّ الدعايات الزائفة- بالتسامح- الذي هو نتاج طبيعته وقناعاته الدينية - إنه العربي الأندلسي الذي يلتقي هنا بسانسوبانشا Sancho Panza «أحد العرب الأندلسيين الذين كانوا يعيشون في إسبانيا منذ ثمانمئة عام وأجبروا على أن يتنصروا بعد استعادة المسيحيين لإسبانيا خوفاً من سيوف محاكم التفتيش المتعصبة، وقد ذكر ذلك العربي بعد أن طرد ملك إسبانيا المسيحي فيليب الثالث العرب من البلاد نهائياً: «إلا أننا تحملنا في عام ١٦٠٩ أقصى عقوبة يمكن أن تفرض علينا».

ولكن الحنين الطاغي دفع العربي الأندلسي ريكوته "Ricote" إلى أن يتسلل متخفياً في زي الحجيج عائداً إلى الوطن الضائع لكي يحضر زوجته وابنته إلى أوجسبورج التي اشترى منزلاً قريباً منها، ولقد كانت تلك الأحداث الرهيبة باقية حية في مخيلة "سرفانتس" الذي ترك بعدها بثلاث سنوات فقط في عام ١٦١٢ - في الجزء الثاني من روايته "دون كيشوت" العربي الأندلسي السيء الطالع يروي حكاية هروبه. وقد شكا العربي الهارب لسانشو بانشا الذي ينتمي إلى

القرية نفسها من أنه وأمثاله لم يجدوا من يقبلهم في أي مكان، ولكن حتى إذا كانت حدود الاستقلال الرسمية والقانونية في ألمانيا من جانب الكنيسة ورجال الدولة- أي منح حرية اختيار الديانة والعقيدة- حتى إذا كانت تلك الحدود لا تزال جامدة لوقت طويل كما كانت في ذلك الحين، إلا أن العربي وجد بين الشعب في ألمانيا روحاً أكثر تحرراً ونبلاً مما عرف في فرنسا وإيطاليا، تلك الروح التي تتيح للغرباء أن يعيشوا في خصوصيتهم.

وبعد أن كانت إسبانيا التي فتحها العرب منذ عام ٧١١ م وظلوا طوال ثمانية قرون يحكمونها، بروح الإسلام، والحكم المتسامح الذي لا مثيل له ورضيت بوجود المسيحيين واليهود، بل وفوق ذلك أتاحت لهم حق ممارسة وحماية ديانتهم، وأقامت بالاتفاق السلمي، بل وبالتعاون في مختلف الوجوه، أقامت معهم أكثر نظم الحكم ثراءً وازدهاراً في القارة الأوروبية، ثم جاءت محاكم التفتيش الدموية مع الغزاة المسيحيين وأحرقت أتباع محمد ﷺ بالآلاف، بل واضطهدت وطردت حتى أولئك الذين تنصَّروا بالعشرات، وهكذا تحرك في نفوس المطرودين الحنين إلى الوطن والإحساس بالمعاملة النزيهة، واحترام الغريب.

ولم يكن الأندلسيون العرب في الحقيقة غرباء عن الألمان بشكل كامل وهذا ما تؤكده أعمال الحفر على النحاس والخشب وغيرها، تلك الأعمال التي نشأت منذ عدة مئات من السنين وتمثل راقصين ماهرين، يقومون برقصاتهم العنيفة بحركات تعبيرية وخطوات واسعة هي "رقصة المورسيك" ولا بد أن مجموعات أخرى من الراقصين العرب قد وصلت إلى ألمانيا منذ القرن الرابع عشر، حين أخذت الممالك العربية في إسبانيا تنهار الواحدة بعد الأخرى وتعرض سكانها المسلمون للاضطهاد أو التنصير الإجباري وغير ذلك من المتاعب. فلما قامت علاقات

زواج بين البيت الإمبراطوري الألماني [مثل القيصر ماكسيميليان الأول وابنه فيليب وابنته مارجريت] والبيوت الملكية الأيبرية، نشأت جسور عبرت من فوقها التأثيرات العربية، خاصة في بلاد آل هابسبورج.

ولم يكن في وسع أي من أسر الأمراء الإسبانية المسيحية أن تنجو من التأثر بأسلوب الحياة الممتاز والتقاليد الملكية والفنون الخلابة التي برع فيها العدو المتفوق الذي كانوا يعجبون به سراً، ولقد أحضروا إلى بلادهم مغنيات عربيات وراقصين وراقصات عرب بصفتهم من غنائم الحرب الغالية القيمة، وأصبح هؤلاء يعدون هناك من مستلزمات حياة القصور حتى بعد أن كان الخناق قد ضيق على عرب الأندلس منذ القرن العاشر. وحين قام بارون بوهيما "روتسيمثال" بزيارة قسطلة في منتصف القرن الخامس عشر، فإنه كما يسجل كاتب مذكرات رحلته، وجد لدى الكونت القوي في بورجو "فتيات حسناوات، وسيدات يلبسن الكثير من الحلي حسب التقاليد العربية الأندلسية، يسرن على التقاليد نفسها في المأكل والمشرب وفي كل سلوكهن، وكان الراقصون والراقصات يؤدون رقصات جميلة على النمط العربي الأندلسي، وكانو جميعاً ذوي بشرة سمراء وعيون سوداء وكانوا يأكلون ويشربون النزر اليسير، وقد حيوا سيدي البارون تحية مفعمة بالود وأظهروا للألمان الصداقة والمودة".

كذلك أحضرت ابنة الملك بيدروس ملك قسطلة عام ١٣٧٢ بعد زواجها من أحد أبناء الملك أدوارد الثالث عن طريق أتباعها رقصة الموريسك معها إلى إنجلترا، فدخلت رقصة موريس "Morris - dance" في التراث الإنجليزي حتى اليوم رقصة تؤدى في القصور ورقصة شعبية، وكانت كتابات شكسبير عنها سبباً في تخليدها عبر الزمن. وحتى بعد سقوط غرناطة فإن "د. يوهانس لانجة"

طبيب الكونت البغالسي فريدريك الثاني، شهد بأم عينه في إسبانيا عام ١٥٢٦م "رقصة الموريسك" حيث كان الراقصون يتزينون بلآلئ جميلة خلابة وأحجار كريمة تزيّن الأذنين والجبهة والذراعين. كانوا يرقصون حسب طريقة بلادهم على أنغام الآلات الوترية والكمان والطبول، التي كانت النساء تعزف عليها، وكان البعض الآخر يصفق طرباً". إن تلك الرقصة الموريسكية التي أدهشت كذلك الرحالة الألماني "كريستوف فايدنيس" عام ١٥٢٩م في إسبانيا هي رقصة يقوم بها الرجال ويحركون أصابعهم التي علقت فيها الصاجات حركات إيقاعية ويصيحون كما تصيح المها. ولقد أخذت هذه الرقصة في الأصل عن رقصات القتال بالسيوف.

كيف إذن لا تؤثر تلك القفزات وحركات دق الأرض بالأرجل حسب إيقاع سريع ٣/ ٢ أو ٣/ ٤ بقوة الرجال الذين يرتدون ملابس غريبة، كيف لا تؤثر على الألمان حينما كان راقصو الموريسك يعرضون فنونهم في حفلات القصر ومهرجانات الرقص وأعياد الربيع، واحتفالات الشعب في الميادين والقرى والمدن أو في صالات الرقص الجديدة بمجالس المدن؟ لقد كانت تلك الرقصة هي أكثر الرقصات شيوعاً في القرن الخامس عشر.

لقد كانت هناك بالتأكيد موجة من الحماس للأندلسيين تعد صدى لمعارك الإبادة البعيدة في إسبانيا أدت إلى دخولهم جنوب ألمانيا، وإلا فكيف نفسر أن عرباً يلبسون العمامة ويمسكون بالصاجات دخلوا في مختلف الأعمال الفنية: هنالك رسم بالحفر على النحاس "لاسراهيل فان ميكنيم" [١٤٤٠م - ١٥٠٣م] وكذلك هناك رسم لتلميذ دورر "Dürr" هانس زويس فون كولم باخ [١٤٨٠م - ١٥٢٢م] وتماثيل خشبية محفورة ذات طابع باروكي من صنع "هانز لينبرجر"

الذي أقام في " لاندسبورت " في الفترة من [١٥١٣م] إلى [١٥٣٠م] - كلها تظهر مجموعة الراقصين المعبرة ترافقها أحياناً سيدة أو عروس الربيع، وأحد المهرجين بالإضافة إلى الموسيقيين. بل إنه لم يكن من المتصور على الإطلاق أن تقام حفلات زواج أمراء " لاندسهوت " - تلك التي أقيمت عام ١٤٧٥م - بدون رقصات الموريسك. ثم عاد أهل " لاندسهوت " فأحيوا تلك الرقصات بعد خمسمئة عام في أثناء احتفالات اليوبيل الضخمة عام ,١٩٧٥م كذلك هناك من الدلائل ما يصل بنا إلى مدينة نيرنبرج وغيرها التي عرفت أيضاً رقصات الموريسك في احتفالات الكرنفال أو "Morischgntans" حيث يقوم كل واحد من المهرجين الراقصين في مباراة قوامها الحركات الفنية الرائعة بمحاولة كسب ود إحدى السيدات التي يقدم لها تفاحة:

أين منا صاحب البراعة

مهرج الحفل الكبير

فهذه التفاحة هدية مني

لمن فاق الجميع

وشهد القيصر ماكسيمليان بنفسه عام ١٥٠٠م في مقر إقامته في إنسبروك رقصة المهرجين المدهشة، وأمر أحد كبار فناني الحفر على الخشب بإبداع رسوم بالحفر تمثل راقصيها في قفزاتهم الغريبة الساحرة، وزين بها " السقف الذهبي " الذي ظل باقياً حتى اليوم.

إلا أن أعظم تخليد حظي به راقصو الموريسك كان من نصيب مدينة ميونيخ، ففي صالة الرقص بدار البلدية القديمة التي تسمى اليوم " صالة البلدية القديمة " قام

النحات العبقري "أراسموس جراسر" عام ١٤٨٠م بتكليف من البلدية بتصوير ستة عشر راقصاً يؤدون حركات رشيقة مليئة بالقوة والتعبير، على الأكتاف التي يرتكز عليها السقف المنيف، وظلت تطل من هناك طيلة ما يقرب من ٤٥٠ عاماً على أهل ميونيخ، حتى تم نقلها عام ١٩٢٧م إلى متحف مدينة ميونيخ، ومن يزر المتحف اليوم ير عشرة منهم يؤدون رقصاتهم الصامتة حتى اليوم.

لقد بقيت رومانسية الموريسك تعمُ مجالس السرور والبهجة في ذلك العهد ويمثل بوضوح هنا ولأول مرة في تاريخ العلاقات العربية - الألمانية تذوّقاً ظاهراً لما كان يسمى "العدو الملعون للكنيسة" وكما أسلفنا فإن قصور أمراء إسبانيا والبرتغال كانت هي الجسر الذي انتقلت عن طريقه هذه المؤثرات، فلم يكن أصحاب تلك القصور يتخلون عن فنون العرب الأندلسيين الاجتماعية، فبقيت تلك الفنون عبر القصور الفرنسية التي كانت الفنون الأندلسية تسلك إليها طرقاً مباشرة عبر جبال البرانس.

وهكذا فإن رقصة "الجالاردا" على إيقاع ٣ / ٤، أو رقصة الديوك التي انتشرت في إسبانيا وفرنسا وأصبحت تسمى "الجيلاردا" أو "الرقصة البهيجة" بعد أن تحورت عن صورتها الأصلية، ورقصة الطاووس ذات الخطوات الجميلة المحددة، فقد بدأت تحتل مكانها في ألمانيا وخاصة في النمسا ومعهما أيضاً رقصة "السارابندا" الشعبية المأخوذة عن عرب الأندلس أيضاً على إيقاع ٣ / ٤.ورقصة الألمون "almon" التي امتازت بالحيوية الدافقة، أو رقصة "الألمين" "almeyn" أي الرقصة الألمانية التي أخذت هذه الصفة حين انتقلت إلى فرنسا ومنها إلى ألمانيا، وهنا فقط بدأت تأخذ طابع الخطوات الهادئة البطيئة التي بقيت حتى اليوم في الأصل الألماني دون أن ندري.

وخلال هذا العصر انتقلت فنون الفروسية العربية التي كانت تسمى "بالمدرسة العليا" إلى وسط أوروبا، فقلد المقلدون معظم أساليب سير الحصان وحركاته، مثل رفع الرجلين الأماميتين والوقوف على الخلفيتين، والسير مع مبادلة الأرجل، والقفز على الواقف وغيرها من الحركات التي كانت من بين الأساليب الحربية المهمة لدى الفرسان العرب خلال القتال، وإذا كانت مدرسة الفروسية في ڤيينا تحمل إلى يومنا هذا اسم "مدرسة الفروسية الملكية الإسبانية" وكان الأحرى بها أن تسمى "مدرسة الفروسية العربية" فإن هذا الاسم وحده يشير إلى مصدرها.

ولقد كان كارل الخامس هو الذي أرسل من قصره في إسبانيا بعض مدرسي فنون الفروسية العرب إلى النمسا، ومن الطبيعي أن الخيول العربية كانت تحتل مكاناً خاصاً خلال احتفالات البلاد الضخمة، وهكذا فإن حفل زواج القيصر ليوبولد الأول والأميرة الإسبانية مارجريتا تيريزا تضمن "الباليه الشهير" الذي يعتمد على الخيول، وكان هذا الباليه يمثل الذروة التي خلبت الألباب كما تضمن الاحتفال عروض الألعاب النارية التي أطلقت إلى عنان السماء، فبددت الظلام ونشرت أمام الناس طائفة من الألوان البديعة، وقد تم التدريب عليها هي الأخرى في القصور الشرقية، وكان عرض الخيول عبارة عن رقصة ضمن العديد من الفصول والمناظر المنوعة وقد صاحبها عزف من ٢٤ عازف بوق، وأربعة من طبول الجيش. ودخل الفرسان والخيول موزعين على فصائل رباعية في مباراة رائعة وهم يرتدون أبهى الحلي ويستعرضون فنونهم على هيئة "معارك وهمية" والأصل في تلك الفصائل الرباعية، وحدات الفرسان الصغيرة التي عرفها العرب في إسبانيا.

وهكذا انتهت المباريات الفرسانية التي كانت سائدة في أوروبا قبل العرب، والتي راح ضحيتها عام ١٥٥٩م الملك الفرنسي هنري الثاني، وحلت محلها

بالتدريج ألعاب الفروسية المأخوذة عن العرب ومنها أيضاً ألعاب الجياد الخشبية الدوارة "كاروسيل" التي تسمى بالعربية "كرج" وكانت عبارة عن مجموعة من الفرسان يقفون في مضمار ويوجهون طعناتهم لإسقاط هدف معين .

وقد وصفها جوته في "الأقصوصة" وظلت باقية لاتخلو منها المهرجانات وأسواق العبيد التي تقام كل عام، كذلك فإن إحدى ألعاب الفروسية الخاصة بالعرب المحبين للهو والتي كان يفضلها [الفرسان] الأندلسيون، انتشرت عام ١٥٦٠م من أحد قصور ڤينا، وهو قصر الكونت موريتيس الهيسي، كلون محبب من ألوان اللعب والمسامرة، كانت تلك اللعبة تحمل طابع مصدرها الأصلي في اسمها نفسه: "اللعبة الأندلسية" أو "الابتكارات الموسيقية" حيث يتكون فريق الفرسان الذي يقوم بعرض موضوع أو قضية "جحود العذارى" ويدافع عنها، ويتكون فريق آخر هو فريق المغامرين الذي يدافع عن عكس تلك القضية حيث يسدد ضربات بالرماح، إلى أن يصدر حكم من قاضي التحكيم .

وقد أدى التراث الأندلسي الذي بقي في أشعار وموشحات العرب الذين بقوا في إسبانيا بعد سقوط الحكم الإسلامي إلى ظهور نوع جديد من الأدب هو "الرواية الحديثة" ولذلك فليس عجيباً أن يؤدي اتحاد إسبانيا وألمانيا تحت راية كارل الخامس إلى زيادة تَقبّل الألمان للحضارة الإسبانية التي كانت تتمتع بقوة جذب خاصة بصفتها العربية الواضحة وتفردها الشرقي .

وكان مهرجان اجتماع مجلس الرايخ في ١٥ يونية ١٥٣٠م واحداً من أعظم مهرجانات ذلك العصر، فقد سار فيه موكب القيصر على نحو رائع يخلب الألباب، وكان في الوقت نفسه استعراضاً لفنون إسبانيا التي غرس العرب بذورها وجعلوها فتنة للناظرين، ولم تكن دهشة الناس قاصرة على ما يمثل

السلطة القيصرية القاهرة وحدها، ولكنها كانت تشكل كذلك كل ما هو أندلسي أو إسباني أو أجنبي في كل ما جاء به هذا القيصر إلى ألمانيا. وبدأت المسيرة باثنين من العبيد يحملان الرايات وعدد من أتباعه وحاشيته، يتبعهم عدة مئات من فرسان الأمراء والطبقات النبيلة والأوساط الرفيعة، وجاء موكب القيصر نفسه وعلى رأسه ثلة من الفتيان النبلاء فوق ظهور الجياد العربية، ثم رجال البلاط والمقربون من القيصر يرتدون الملابس القطنية ذات اللونين الأحمر والأصفر، ويمتطون صهوة خمسمئة جواد زينت بأجلال مذهبة، يتبعهم السفراء والملوك والأمراء، وكبار رجال الكنيسة، وكان الموسيقيون العرب يسيرون خلفهم، يقرعون الطبول وينفخون في الأبواق. ثم ظهر القيصر نفسه فوق جواد عربي أبيض مرتدياً سترة عسكرية إسبانية مذهبة، وقبعته من الساتان الإسباني، تظله مظلة بغدادية من الحرير الدمشقي الأحمر وشيت بنسر الإمبراطورية.

كل هذه الأشياء ابتداءً من المظلة البغدادية والأقمشة الحريرية والساتان والمنسوجات والموسيقيين الذين يدقون الطبول وينفخون الأبواق، كلها جاءت من الشرق ومنها ما ظل يحمل اسمه العربي . . . إنها ميراث حضاري ونفحات من عصور مبكرة: عصور الفروسية والحروب الصليبية وازدهار القوطية.

روابط الصداقة بين شارلمان والعرب

تعود الروابط بين العرب والألمان إلى وقت بعيد وتتسم كلها بلا استثناء بطابع الصداقة حتى خلال تلك الفترات التي كانت بقية دول الغرب في أثنائها مشتبكة في صراع حياة أو موت ضد العرب.

جرى أول لقاء بين الطرفين في التاريخ القديم للشعبين قبل ١٢٠٠ عام على وجه التحديد، ولقد كان لقاء صداقة، فبينما كان شارلمان العظيم يشهد جلسة لمجلس أمراء إمبراطوريته في مدينة "بادربورن" ظهر أمامه وفد ذو مظهر غريب وشكل غير مألوف يضم رجالاً يرتدون ملابس لم ير مثلها من قبل، ذلك أن والي [سرقسطة] سليمان العربي، الذي طرده عبدالرحمن أمير قرطبة الأموي، أقبل مع أقارب والي قرطبة السابق يوسف الفكري وكان الأمير الجديد قد طرده هو الآخر من عرشه، جاء هؤلاء من إسبانيا فساروا أياماً عدة وتوغلوا داخل بلاد تدين بغير دينهم، لكي يطلبوا من ملك الفرنجة القوي وقاهر الساكسون، المساعدة المسلحة في مواجهة المغتصب البغيض.

ولكن كيف يطلب المسلمون المؤمنون أتباع محمد ﷺ من رجل مسيحي أن يساعدهم؟ إن ذلك ليعتبر في الحقيقة حدثاً خارقاً للمألوف.

ألم يكن هؤلاء هم الذين انطلقوا قبل ٥٥ عاماً وفي عام ٢٣٢ من إسبانيا المقهورة واجتاحو فرنسا كالإعصار الجارف يزرعون الموت والدمار بهذا تحدث المؤرخون منذ أجيال مضت وهكذا تعلمنا أيضاً في المدرسة. تعلمنا أن كارل مارتل تمكن عن طريق انتصاره الحاسم الذي حدد مصير أوروبا المتأرجحة بين

البقاء والاندثار، تمكن عن طريق انتصاره الذي حققه في معركة تور وبواتتيه من وضع نهاية الفتح العربي الذي استهدف السيطرة على القارة فقتل ٣٧٥٠٠٠ من العرب وفر الناجون تطاردهم فرسانه عبر جبال البرانس، وأنقذ مارتل حاضرة الغرب وتراثه "من سيطرتهم القاهرة". على أن الفرنجة لم يلحظوا - بعد المعركة غير الحاسمة التي سقط فيها قائد الجيش العربي - أن عدوهم قد أخلى معسكره الحصين قبلهم في أثناء الليل، إلا في اليوم التالي، وهذا يؤكد الاعتقاد بأنهم غالوا في تقدير عدد الجنود بهدف رفع قيمة ذلك النصر، ومن ثم فإن الأمر لا يعدو كونه دعاية عسكرية من طرف واحد. وكانت مثل هذه الدعاية تتم في مواقع أخرى خلال العصر الوسيط في مواجهة أعداء الدين، وذلك خلافاً لما اعتقده المؤرخ البلجيكي هنري بيرين، بصدق أقول بأنه لم يحدث في موقعة "تور وبواتتيه" سوى الحيلولة دون حدوث عملية نهب أكبر".

لم يكن كارل مارتل نفسه يؤمن بما قيل عنه أنه "منقذ الحضارة الغربية" كما أن ذلك لم يكن رأي من أتوا بعده ولا رأي الكنيسة التي - على العكس من ذلك- طردته من رحمتها.

وهكذا فإن ذلك الوصف يتنافى مع الحقيقة الواقعة؛ فبينما ظل التقدم الحضاري في أوروبا المسيحية يراوِح في مكانه طوال مئات السنين، أو متخلفاً في بعض المجالات المهمة، نجد أنه قد قامت حضارة مزدهرة على الجانب الآخر من جبال البرانس، بلغت في رقيها درجة لم تشهدها أوروبا حينذاك، وكذلك قامت مدنية متطورة وازدهرت مجالات الاقتصاد والزراعة والصناعة والعلوم والهندسة وفنون الشعر والموسيقى بصورة لم يكن لها مثيل في القارة الأوروبية، وظل المسيحيون واليهود يمارسون في ظلها شعائر دينهم في حرية لا تعرف القيود:

ما الذي يمكن الاحتفاظ به إذن من كل الحكم التي تعلمناها في المدارس.

حقيقة إن "دون أو يبدو" فون أكويتانيا قد تمكن من صد هجوم عربي على "غالة" عام ٧٢٠م ولكن العرب تمكنوا على الرغم من ذلك من الاستيلاء على "فاربون" ثم توقف زحفهم الجديد في عام ٧٢٢م بتلك الصورة المفاجئة على مشارف تور بواتتيه ولكن أحداً لم يطرد العرب في الحقيقة مطلقاً عبر جبال البرانس والمؤكد أنهم ظلوا يسيطرون بإحكام طوال مائة عام تقريباً على أجزاء من أكوتيانيا والبروفانس ومنطقة الألب الغربية، كما أن كارل مارتل حاصرهم فعلاً عدة مرات في مدينتي "نيم" و "ناوبون" الحصينتين، ولكن دون جدوى.

وكان العرب يخرجون كل عام من حصونهم المقامة على الحدود التي تسمى "الرباط" من أجل الجهاد وفتح البلاد غير المسلمة؛ ليبلغو دعوة الإسلام إلى أهل هذه البلاد؛ لأن ذلك فرض في الإسلام وضحه النبي ﷺ للأمة الإسلامية، وهكذا ظل العرب يزحفون المرة تلو الأخرى حتى وصلوا إلى "بوردو" و "أفينيون" بل إلى سيبتمانيا في اتجاه مصب نهر الرون، كذلك كانت المعارك مع العرب حدثاً يقع يومياً في جنوب فرنسا، على الرغم مما يدعيه كارل مارتل.

ولكن في عام ٧٧٨ م زحف كارل العظيم [شارلمان] متحالفاً مع بعض الأمراء العرب عبر جنوب فرنسا وجبال البرانس واستولى على كل الأراضي التي مر بها حتى بلغ نهر الأبرو.

وكانت سرقسطة وحدها هي التي تصدت بعناء لواليها السابق وقاومت ملك الفرنجة، وفي أثناء حصار سرقسطة الذي طال أمده، جاء نبأ يقول إن فشل شارلمان قد شجع الساكسون في بلاده على التمرد من جديد فتحركوا حتى وصلوا

إلى نهر الراين، وهنا اضطر الملك شارلمان إلى فك الحصار عن سرقسطة والتخلي من جديد عن ضفتي "الأبرو" وأسرع بالانسحاب. وحدثت في أثناء ذلك حادثة ظلت ذكراها عالقة في أذهان من جاؤوا بعد ذلك أكثر مما علقت بأذهانهم ذكرى أحداث تلك الحملة الحربية.

ذلك أن سكان الجبال من قبائل الباسك المسيحيين [الفاسكون] نزلوا إلى وادي البرانس الضيق الذي تكسوه الغابات في "رونسفال" لينتقموا من الفرنجة الذين دمروا عاصمتهم "بامبلونا" ونهبوها، فهاجموا مؤخرة الجيش التي تضم المؤن والمعدات الثقيلة، والتي كان يقودها الكونت البريتاني روتلاند، وتمكنوا من القضاء على مؤخرة الجيش واستولوا على الكنوز التي كان الفرنجة قد غنموها. وسرعان ما نشأت أسطورة من أجل تخليد الصورة البطولية لرجال القيصر. تقول أن روتلاند عندما أيقن بالهلاك نفخ بقوة هائلة في بوق العاج "أوليفانت" فتفجرت شرايين رقبته ووصل الصوت عبر ثمانية أميال إلى آذان الملك الذي كان يتقدم الجيش، ولا شك أن ذلك البوق الشهير "أوليفانت" لم يكن آلة النفخ المعروفة لدى الفرنجة المصنوعة من قرون البقر وغيرها من الحيوانات وإنما كان من قبل مجوفاً جلبه العرب معهم من إفريقيا إلى إسبانيا على سبيل التذكار أو هدية من الحلفاء العرب وقد استخدموه للتحذير.

وبعد ثلاثة عشر عاماً خرج من آخن بعض الدبلوماسيين بتكليف من شارلمان - القيصر الذي قد توج لتوه في روما - متجهين في مهمة سرية إلى بلاط أحد الملوك العرب في شمال إفريقيا. كان الخليفة هارون الرشيد المتربع في بغداد على عرش الخلافة الإسلامية الممتدة من نهر جيحون حتى المحيط الأطلنطي، وقد كافأ الوالي إبراهيم بن غالب بعد أن تمكن في عام ٨٠٠م من إخماد تمرد قام في إفريقيا

[حالياً: تونس والجزائر] وأعاد النظام إليها. فجعل الولاية له ولأولاده من بعده مقابل جزية سنوية. استقبل ابن غالب القادمين من الشمال في مقر حكمه الذي أنشأه حديثاً في العباسة التي تبعد عدة كيلو مترات جنوب العاصمة، القيروان، وعلم منهم أنهم قدموا للمطالبة رسمياً بالمخلفات المقدسة للقديس الشهيد كبريانوس أسقف قرطاجة، كان هذا هو التبرير الرسمي ولكن رسل شارلمان أرادوا أن يبحثوا تحت ستار هذا التبرير مع والي إفريقية الجديد إمكانية التعاون السياسي لمواجهة إمارة قرطبة.

كان العرب يتعرضون باستمرار للطرد من أكوينانيا وسبتمانيا وكانوا يعاودون الكرة، حيث حققوا فيهما نصراً على الفرنجة عام ٧٩٣ م واستعادوا هذه المناطق الإسبانية، وهنا أصبح على الابن الرابع للقيصر أن يضطلع بمهمة هيأته لها الظروف التي أحاطت بمولده، ذلك أن زوجة شارلمان الثالثة، هيلديجارد، كانت قد استقرت على سفح جبل البرانس، عندما كانت ترافق زوجها خلال حملته الإسبانية وهناك وضعت ابنها، "لودڤيج" وقد ظل الشاب "لودڤيج التقي"، يقود لسنوات طويلة من أكوينانيا الحرب لصد الهجمات العربية القادمة من القلاع، وواصل الحرب من أجل الإمارة الواقعة على الحدود الإسبانية حتى تمكن من ضمها إلى بلاد الفرنجة، وعقد صلحاً سلمياً مع ابن عبدالرحمن أمير قرطبة، وكان ذلك سبباً في أن تصبح تلك الإمارة التي تقع بين عالمين: الشرق والغرب، مفتوحة الأبواب أمام التأثيرات العربية السائدة مع الشعوب التي تعيش مع بعضها.

ولكن الموجات العربية المتفرقة ظلت تتدفق من ذلك العالم الغريب والمدهش حتى بلغت أواسط المملكة، وقدّم اليهودي "إيزاك" فيلاً أبيض يدعى أبو العباس إلى ملك الفرنجة تعبيراً عن رضاء الخليفة العظيم هارون الرشيد، وقد تم نقله عبر

البحار وجبال الألب حتى "آخن" وظل لمدة ثماني سنوات بعد هذا التاريخ يثير دهشة الفرنجة حتى مات في ليبيهام، وعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تشر إلى مثل هذه الهدايا أو الرسل التي بعث بها الخليفة إلى أحد ملوك الفرنجة، إلا أنه ما من شك في أن ما جاء من دول المشرق العجيبة من هدايا تخلب اللب، كان يعد بالنسبة إلى المؤرخ الإفرنجي البسيط الذي ذكر هذه القصة شيئاً بالغ الأهمية، أما المؤرخ العربي الذي كان يعمل في بلاط الخليفة ذلك البلاط الذي يموج بكافة الأجناس والاتجاهات وتتدفق عليه الأخبار من كافة أرجاء المعمورة، فلم يكن يهتم لمثل هذا الحدث العادي، وكتب المؤرخ الإفرنجي يقول: «إن صلات شارلمان مع الملك[1] هارون ملك فارس الذي كان يسيطر على الشرق كله عدا الهند، كانت صلات ودية للغاية إلى حد أنه أسبغ على شارلمان من دون كافة ملوك الأرض وأصحاب السلطان، نعمة صداقته ورأى أنه أحق بالتكريم والهدايا، كذلك فإن شارلمان أرسل الهدايا مع رسله إلى القبر المقدّس وإلى حيث صعد «ربنا ومخلصنا»[2] وحين وقف الرسل أمام هارون لكي يبلغوه تحيات ملكهم فإنه شكرهم كثيراً، ومنح شارلمان حق السيادة على تلك الأماكن المقدسة المباركة.

وأرسل هارون مع المبعوثين العائدين رسلاً يمثلونه وبعث معهم بمفاتيح قبر المسيح والجلجلة تعبيراً عن حمايته للأماكن المقدسة، وكان الوفد يتكون من رجل عربي اسمه عبدالله يرافقه راهبان ألمانيان أرسلهما رئيس الدير الواقع فوق جبل الزيتون، وقام عبدالله بتسليم الإمبراطور - الذي توج في هذه الأثناء ملكاً على الغرب- عدداً من الأشياء العجيبة: سرادق وعدد من السجاجيد الملونة التي آثارت زخارفها وروعتها وجمالها الإعجاب والدهشة».

---

(١) لم يكن هارون ملكًا إنما خليفة المسلمين الذي يحكمهم في الشرق.
(٢) هذه العبارة لا تتفق وعقيدتنا الإسلامية ويمكن أن يستعاض عنها بالأماكن المقدسة.

هذا ما ذكره المؤرخ أينهارت الذي أضاف يقول: إن الهدايا كانت تضم أيضاً أقمشة من الحرير وعطوراً وزيتوناً وبلسماً، ومصباحين من النحاس الأصفر، يثيران الدهشة بعظمتهما وروعة شكليهما. وكان من بين الهدايا آلة عجيبة لم ير أحد في الغرب مثلها من قبل أثارت دهشة لا حد لها كانت تلك الآلة العجيبة ساعة. ويمكننا حتى اليوم أن نستشعر مدى الأثر الرائع الذي أحدثته هذه الساعة عندما نقرأ التقرير الذي وصف فيه أينهارت تلك الآلة المفعمة بالمعاني "كانت ساعة من النحاس الأصفر، أو بالأحرى قطعة فنية بالغة الروعة، ساعة مائية تقيس اثنتي عشرة ساعة فإذا اكتملت الساعة سقطت كرتان صغيرتان على صنج معدني مثبت تحتهما وأحدثتا رنيناً، وخرج عدد من الفرسان مساو للساعة التي دقت من اثني عشر باباً يقفزون قفزة قوية تغلق الأبواب المفتوحة. وكانت الساعة تجمع من العجائب الأخرى الشيء الكثير الذي يضيق المجال عن وصفه كله.

وهنا شعر الغرب المسيحي لأول مرة أن هناك عالماً آخر غير عالمه الخاص به من الكنوز والفنون ما لا يخطر له على بال، ولذلك فإذا حدث أن التقى الغرب بتلك الدول التي على غير دينه أو إذا خفت حدة القيود العازلة بصورة تسمح بإلقاء نظرة على تلك البلاد متجاوزة حدود النظام الجاف الصارم المألوف، كانت العين تنبهر لأنها تبصر المزيد من المفاجآت والأشياء الجديدة المثيرة للدهشة، تماماً كما حدثت الأخت روزيتا راهبة «جاند رسهايم».

الصداقة المؤجلة بين والي قرطبة والإمبراطور أوتو الأول

قاد الأمير عبدالرحمن الثالث أمير قرطبة الذي يعتبر أهم وأقوى حكام الأندلس، «إسبانيا العربية» على مدى خمسين عاماً حيث حكمها حكم رجل الدولة الحقيقي؛ لأنه حقق أكبر قدر من الانتشار والازدهار الثقافي في أوقات السلم، كما حقق ازدهاراً اقتصادياً جعل البلاد تتبوأ مركز الريادة في العالم المتحضر، واتخذ عبدالرحمن لنفسه لقب "الخليفة" وأرسل خطاباً إلى حاكم ألمانيا العظيم "الذي انتصر على المجر، أوتو الأول ولكن هذه الرسالة التي قصد بها أن تعبر عن الصداقة أثارت في بادئ الأمر غضباً واضطراباً عظيمين من غير قصد.

وكان لا بد أن يستمر نهر الوادي الكبير في التدفق طويلاً قبل أن تصفو السماء التي كدرها ذلك الغضب، لتشرق من جديد بالصداقة والحبور على الجميع. وكان السبب في تلك الفجوة عبارة عادية تماماً جرى بها قلم صاحب الرسالة بصورة طبيعية، فدعا من أرسل إليه الخطاب إلى شكر الله الواحد والإيمان به - ذلك هو المعنى الذي لا بد أن يترجم بصورة سليمة- ولكن مثل تلك الدعوة كانت بالنسبة إلى أوتو العظيم سبباً كافياً لترك الرسل العرب تنتظره ثلاث سنوات قبل أن يسمح باستقبالهم.

وأرسل أوتو من جانبه راهبين يتسمان بالشجاعة، هما يوهانس فون جورتز وجارامانوس إلى قرطبة يحملان رسالة تكاد تعتبر -حتى لو تساهلنا في تفسير مضمونها- بمثابة إهانة لنبي الإسلام، فلما عرف الخليفة بمضمون الرسالة السيئ،

أمر بمعاملة الرسل أحسن معاملة وإبلاغهم أنه لن يستقبلهم قبل تسع سنوات، وهكذا أصبح لزاماً عليهم أن يتخلوا عن تسليم الخطاب الذي كان يمكن أن يخلق وضعاً خطيراً. إلا أن يوهانس فون جورتز رفض ذلك، وأصر على الرغم من المحاولات المتكررة من جانب أسقف قرطبة المسيحي لإقناعه بأن عدم تخليه عن موقفه سوف يجلب غضب الخليفة على المسيحيين في قرطبة. وهنا استقر الرأي على إرسال أحد رجال البلاط المسيحيين وهو الأسقف "ريكموندوس" إلى ملك ألمانيا لتقديم رسالة جديدة إليه، وبعد مرور عامين كاملين على وصول يوهانس المتشبث بموقفه إلى البلاد. وصل إلى قرطبة في يونيه/ حزيران ٩٥٩م مبعوث جديد من قبل الملك أوتو برفقة الأسقف ريكموندوس ومعه عرض بعقد اتفاق سلام وصداقة. وطلب أمير المؤمنين في البداية أن يستقبل أولاً الراهب الشجاع الذي استطاع التمسك بموقفه بمثل هذه الجرأة، قبل أن يستقبل من جاؤوا يعرضون الصداقة، واصطحب يوهانس وجرامانوس إلى قصر الصخرة المنيف الذي يخلب الألباب -وكان على بعد خمسة كيلو مترات شرقي قرطبة- فسارا خلال صفوف لا تنتهي من الردهات الجميلة المزدانة بأبهة تفوق الخيال وزخارف من الذهب الخالص والمرمر والبللور والخشب المحفور وسن الفيل والجواهر الحقيقية تتخللها المياه، وتبرد جوها النافورات. ثم استقبله الخليفة وأكد له أنه قد أسبغ عليه عطفه البالغ وأعطاه يده ليقبلها حسب التقاليد العربية. وخلال حديثهما شعر الخليفة بالإعجاب تجاه الراهب الألماني فدعاه لزيارته وزادت الصلة توثيقاً بين الرجلين.

أمضى الرسولان الملكيان في «مدينة المدائن» هذه أكثر من عامين. كانت المدينة تعد أكبر المدن وأكثرها جمالاً بين كل مدن أوروبا، وتمتد بطول شاطئ نهر الوادي

الكبير ولها ٢٨ ضاحية ويبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة يعيشون في ١١٣٠٠٠ منزل ماعدا مساكن الوزراء والموظفين، وكانت قرطبة تضم ستمئة مسجد، وثلاثمئة حمام ساخن، وثمانين مدرسة عامة، وسبعة عشر معهداً دراسياً، بجانب المدارس العليا الأخرى التي يدرس بها في القرن التاسع طلاب الطب والرياضة، ونحو ٤٠٠٠ طالب من دارسي الفقه. كذلك كانت قرطبة تزخر بعشرين مكتبة عامة مفتوحة أمام طبقات الشعب كله ولم تكن أية مدينة في ألمانيا أو غيرها من بلاد أوروبا تضم على أكثر تقدير سوى بضعة آلاف من الناس، كما لم يكن بها مستشفيات أو مدارس، وبالطبع لم تكن بها مكتبات أو حمامات عامة، بل لقد وصل الأمر إلى حد أن الكتب التي كانت بالأديرة كانت لندرتها تثبت بالسلاسل، وبينما كانت شوارع المدن الواقعة شمال البرانس غير مرصوفة تغطيها أكوام القاذورات والأوحال، فإن الراهبين الألمانيين كانا يسيران هنا في قرطبة على طرق مرصوفة نظيفة، وتقوم على نظافتها عربات تجرها الثيران، بل إنها كانت تضاء ليلاً بواسطة مصابيح مثبتة على جدران المنازل.

وأبدى الألمانيان إعجابهما بتلك الثقافة العالمية التي شاهدا ملامحها في كل مكان، وبالتسامح الذي يبديه الخليفة والتاجر والصانع البسيط، وبقلوبهم الكبيرة وكانت المفاجأة التي أخذت بمجامع قلوبهما هي تلك الحرية التي يتمتع بها المسيحيون هنا في أداء شعائر دينهم، بل لقد كان في وسعهم أن يتقلدوا أعلى مناصب الدولة، كذلك كان الراهبان يبدوان أثناء جولاتهما أشبه بمن خلبت لبه تلك الدقة المتناهية التي تتسم بها أعمال الزخارف العربية المشغولة، ورسومات الجدران الجميلة، وأعمال النحت الرائعة، والسجاجيد الزاهية المشرقة التي تبعث الحياة في الردهات والأبهاء المحمولة على ٤٣٠٠ عمود منحن، والنافورات التي

تعد بمنزلة أعمال فنية ممتازة يضمها قصر الخليفة، ولذلك كان من اليسير عليهما أن يصدقا معاصريهما الذين أسموه "أكثر الأبنية التي عرفها العالم العربي إشراقاً وبهاء" ، بل أعظم الأعمال التي صنعتها يد الإنسان على الإطلاق، ويمكن أن نلخص كلامنا فنقول: إنهما قد تنسما عبير ذلك الجو الذي يكتنفه أرق الأحاسيس، الجو الروحي القريب من الحواس، الجو الذي يخلب تلك الحواس يرضي الروح ويشبعها في وقت واحد.

وكان على "يوهانس فون جورتز" أن ينقل لمليكه إعجابه ودهشته بما وجده هناك: لقد وجد أفضل قوة حربية مجهزة ومنظمة في العالم.

إن هذه الصورة الرائعة التي عاد بها إلى وطنه واحد ممن انتشى بخمر ذلك العالم الغريب الذي لا يدين بالمسيحية، قد انعكست على قصيدة المديح التي صاغتها الراهبة «روسفيتا فون جاندرسهايم" باللغة اللاتينية وبإحساس دافق في بلاط القيصر، وهي تشدو بعبارة تمتلىء حماساً بقرطبة البعيدة:

درة الدنيا الناصعة

المدينة الفتية الرائعة

فخورةٌ بمنَعتها

شهيرةٌ بمباهجها

مشرقة فيما تحوز عليه من كل الأشياء